في الأدب العربي

ابن خلدون والتفكير المصري

تتمة بحث "ابن خلدون في مصر"

للاستاذ محمد عبد الله عنان

٤

قضى ابن خلدون في مصر ثلاثة وعشرين عاما (٧٨٤ - ٨٠٨ هـ) ولكنها كانت بين مراحل حياته أقلها حوادث وأقلها انتاجا .

فاما عن الحوادث فان الحياة السياسة العاصفة التي عاشها ابن خلدون بالمغرب، والتي جاز خلالها معترك شاسعا من المنامرات والدسائس الخطرة ، وعانى كثيرا من الخطوب والمحن ، كما نعم مرارا بمراتب النفوذ والسلطان ، والتي هي في الواقع صفحة قوية شائقة في تاريخ المغرب في أواسط القرن الثامن : هذه الحياة المضطرمة العاصفة ، استبدلها المؤرخ في مصر بحياة أكثر هدوءا ودعة . وفي مصر يعيش ابن خلدون شخصية عادية لاعلاقة لها بشئون الدولة العليا ، بعد ان لبثت بالمغرب ربع قرن روح هذه الشئون ، يتجرد من ثوب السياسي المغامر ليتشح بثوب العالم المقتدر ، وليستوحي نفوذه المحدود من هذه الناحية . على ان المؤرخ لقي في هذه الفترة حادثين من أهم حوادث حياته ، هما فقد اسرته . و لقاؤه للفاتح التتري تيمورلنك .

واما عن الانتاج ، فقد رأينا ان المؤرخ حقق أعظم أعمال حياته ، أعني كتابة تاريخه الضخم ومقدمته الرائعة قبل مقدمه الى مصر . ولانعرف ان ابن خلدون وضع أثناء مقامه بمصر مؤلفا جديداً . غير أن الذي لاريب فيه هو أن وجوده بمصر على مقربة من المكاتيب والمراجع الشاسعة قد أتاح له فرصة التنقيح والتهذيب في التاريخ والمقدمة ، خصوصا فيما تعلق فيهما بمصر والشرق ، كذا استمر المؤرخ في كتابة ترجمة حياته أثناء إقامته بمصر ، واستمر فيها الى قبيل وفاته ، وضمنها فصولا جديدة عن خواص دول المماليك المصرية ، ونشأة التتار مما أشرنا اليه في موضعه . وكتب أثناء مقامه بالشام وصفاً لبلاد المغرب ورفعه إلى تيمورلنك كما قدمنا . كذلك لا ريب في أن ابن خلدون كان يعنى في دروسه ومجالسه ببث مذاهبه وآرائه الاجتماعية وشرحها .

غير أن ابن خلدون لم يستطع على ما يظهر أن ينشيء له بمصر مدرسة حقيقية ، يطبعها بآرائه ومناهجه ، وقد كان حريا أن ينشيء مثل هذه المدرسة في بلد انقطع فيه للبحث والدرس أعواما طويلة . نعم أن التفكير المصري المعاصر ليس خلواً من تأثير ابن خلدون كما سنرى ، ولكن هذا التأثير الذي كان حريا أن يزدهر بمصر وأن ينبث في مدرستها التاريخية التي كانت يومئذ في أوج قوتها ، كان ضئيلا محدود المدى . ونستطيع أن نرجع ذلك الى الروح الذي استقبل به المؤرخ من المجتمع المصري المفكر، وهو روح نفور وخصومة ، فقد جاء ابن خلدون الى مصر يسبقه حكمه على المصريين في مقدمته بأنهم قوم «يغلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب » (١) ويورد ابن خلدون هذه الملاحظة في معرض كلامه عن أثر الهواء في أخلاق البشر ويعتبرها نتيجة لوقوع مصر في المنطقة الحارة . على أنه مهما اتخذت هذه الملاحظة سمة البحث العلمي فانها لا يمكن أن تقابل ممن قيلت في حقهم بغير الاستياء والحفيظة . وكان طبيعياً أن يحدث هذا الغرس السيء أثره في شعور المجتمع المصري المفكر نحو المؤرخ . وكان هذا المجتمع نفسه يجيش عندئذ بكثير من عوامل الخصومة والمنافسة ، وزعامته يطبعها لون من الجفاء والقطيعة . وكان اضطرام المنافسة بين أعلام التفكير والادب يومئذ سواء في ميدان التفوق والنبوغ أو في تحصيل ما تسبغه الزعامة الادبية من الجاه والرزق ظاهرة هذه الخصومة . وكان المجتمع القاهري الادبي ينقسم عندئذ إلى شيع وطوائف تنحاز كل شيعة أو طائفة إلى زعيم أو جناح معين من الزعماء فتؤيد جهوده الادبية وتناجز خصومه في

(١) ابن خلدون — المقدمة (بولاق) — ص ٧٣

ميدان الجدل . فلم يكن من السهل على أجنبي مثل ابن خلدون جاء ينتظم فى سلك هذا المجتمع منافساً فى طلب الجاه والرزق أن ينعم بصفاء الافق، أو يلقى خالص المودة والصداقة ، هذا إلى ما كان يغلب على خلاله من حدة وصراحة وكبرياء تزيد من حوله الجفاء والقطيعة .

كان طبيعياً أن تلقى آراء ابن خلدون ودروسه فى هذا الافق الكدر من الاعراض والانتقاص أكثر ما تلقى من الاقبال والتقدير ، وان تكون محدودة الذيوع والاثر . ومع ذلك فقد درس على ابن خلدون جمهرة من أعلام التفكير والادب المصريين وانتفعوا بعلمه ، وظهر أثره جليا فى بعض ثمرات التفكير المصرى المعاصر . وممن درس عليه وانتفع بعلمه الحافظ ابن حجر العسقلانى المحدث والمؤرخ الكبير فهو يقول لنا فى كتابه « رفع الاصر عن قضاة مصر » إنه « اجتمع بابن خلدون مراراً وسمع من فوائده ومن تصانيفه خصوصاً فى التاريخ » وإنه « كان لسنا فصيحاً حسن الترسل وسط النظم مع معرفة تامة بالامور خصوصا متعلقات المملكة » ١ . وإنه كان جيد النقد للشعر وإن لم يكن بارعا فيه . بيد أن ابن حجر يحمل على ابن خلدون بشدة ، وينقل فى ترجمته كثيراً مما قيل فى ذمه وتجريحه . فهو يقول لنا فى تاريخه ان ابن خلدون مؤرخ بارع « ولكنه لم يكن مطلعاً على الاخبار على جليتها ولا سيما أخبار المشرق » (٢) ويعارض المقريزى فى مدح المقدمة ويرى أنها لا تمتاز بغير « البلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية » وان محاسنها قليلة « غير أن البلاغة تزين بزخرفها حتى يرى حسناً ما ليس بحسن » (٣) وأما ابن خلدون كقاض فان ابن حجر يقول لنا إنه باشر القضاء بعسف وبطريقة لم تألفها مصر وانه لما ولى المنصب تنكر للناس وفتك فى كثير من أعيان الموقعين والشهود ، وانه عزل لاول مرة بسبب ارتكابه التدليس فى ورقة (٤) ثم ينقل فى هذا الوطن كثيراً مما قيل فى ذم المؤرخ وتجريحه . من ذلك » ان أهل المغرب لما بلغهم ولايته للقضاء تعجبوا ونسبوا المصريين إلى قلة المعرفة بحيث قال ابن عرفه (١) « كنا نعد خطة القضاء أعظ المناصب فلما وليها هذا عددناها بالضد من ذلك » ومن ذلك قول الركراكى أحد الكتاب الذين عملوا مع ابن خلدون « انه عرى عن العلوم الشرعية » بل ينقل ابن حجر أيضاً بعض المطاعن الشخصية والاخلاقية التى قيلت فى حق المؤرخ من ذلك ما نقله عن العينتابى وهو أنه كان يتهم بأمور قبيحة (٢) وما نقله عن كتاب القضاة للبشبيشى، وهو « أن ابن خلدون كان فى أعوامه الاخيرة يشغف بسماع المطربات ومعاشرة الاحداث وانه تزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط » وانه كان « يكثر من الازدراء بالناس « وانه حسن العشرة إذا كان معزولا فقط فاذا ولى المنصب غلب » عليهم الجفاء والنزق فلا يعامل بل ينبغى أن لا يرى » وهذه أقوال تنم عن خصومة مضطرمة ومبالغة فى الانتقاص تنحدر إلى معترك السباب والقذف . وقد كان البشبيشى (٣) بلا ريب من الخصوم المؤرخ وأشدهم وطأة عليه . وقد دون حملاته على المؤرخ فى كتاب ألفه فى تاريخ القضاة ولم يصل الينا ، ولكن ابن حجر ينقل الينا منه تلك الفقرات الشخصية اللاذعة

وأخيراً يقول ابن حجر أن ابن خلدون كان يتمسك بزيه المغربى ويأبى أن يرتدى زى القضاة لا لشىء سوى حبه المخالفة فى كل شىء (٤)

وموقف الحافظ ابن حجر من ابن خلدون واثره يدعو الى التأمل، فهو على رغم اتزانه واعتداله وعفة قلمه ينساق هنا الى نوع من التجريح والانتقاص ليس مألوفا فى كتاباته . ولا ريب ان فى لهجته واقواله مبالغة وتحامل ، ولكن لا ريب ايضا ان لها قيمتها فى تقدير الراى المصرى المعاصر لابن خلدون ، بل نستطيع ان نعتبرها ممثلة لراى الفريق المفكر الذى كان يخاصم المؤرخ ويشتد فى تجريحه ، والحملة عليه ، وقد كان الفريق الاقوى بلا ريب لانه كان يضم كثيراً من المفكرين والفقهاء البارزين مثل ابن حجر ، وجمال البشبيشى ، والركراكى، وبدر

---

١) رفع الاصر (المخطوط المشار اليه) ورقة ١٦٠ — ونقله السخاوى فى الضوء اللامع

٢) أنباء الغمر فى أنباء العمر (مخطوط دار الكتب) ج١ ص٧١١

٣) رفع الاصر ,, المخطوط المشار اليه ،، ورقة ١٦٠

٤) رفع الاصر — ورقة ١٥٩

١ ابن عرفة من فقهاء الغرب ، وكان خمال ابن خلدون

٢ أنباء العمر ١ ص ٧١١

٣ وهو الجمال عبد الله البشبيشى . ولد سنة ٧٦٢هـ بقرية بشبيش من أعمال الغربية . وتوفى سنة ٨٢٠ هـ . وكان من أكابر فقهاء الشافعية ومن أقطاب الادب واللغة . وقد ولى الحسبة بالقاهرة حينا ,, ترجمته فى الضوء اللامع — القسم الثالث المجلد الثانى ص٥١١ ،،

٤ رفع الاصر فى مواضع مختلفة من ترجمة ابن خلدون ,, الورقة ١٥٨ الى الورقة ١٦٠